Historical glimpses of a number of historians and orientalists as they express their love for Iraq and Baghdad throughout history

Prof. Sadiq Abdul Muttalib Aziz, PHD

Ahl al-Bayt University - Karbala

Aziz_sadikalmousawi@mail.fr

DOI: 10.31973/aj.v3i138.1786

Abstract:

I hope that I have succeeded in transmitting the testimonies of some foreign writers and orientalists about Baghdad, which remained resistant to the colonialists and occupiers in all their forms and nationalities, and resisted and confronted all kinds of destruction and sabotage, and preserved its bright face throughout the ages to be the capital of Arab culture, because its roots and cultural and civilizational legacy extend in the subsoil of the earth. And as the French orientalist "Andre Clough" said, "The earth rotates according to the time of Baghdad… These orientalists and writers I met and spoke to me a lot about Baghdad in addition to their writings, which I transferred a small part of due to lack of time. And the role of translation in the transfer of this legacy and cross-fertilization with civilizations.

Keywords: historian, orientalist, Iraq, Baghdad.

لمحات تاريخية عن عدد من المؤرخين والمستشرقين وهم يعبرون عن حبهم للعراق وبغداد عبر التاريخ

أ.د صادق عبد المطلب عزيز

جامعة أهل البيت – كربلاء

Aziz_sadikalmousawi@mail.fr

(مُلَخَّصُ البَحث)

أرجو ان أكون قد وفقت في نقل شهادات بعض الكتاب والمستشرقين الاجانب عن بغداد التي بقيت عصية على المستعمرين والمحتلين بكل أشكالهم وجنسياتهم وقاومت وجابهت كل أنواع الدمار والتخريب وحافظت على وجهها المشرق على مر العصور لتكون عاصمتا للثقافة العربية ، ذلك ان جذورها وارثها الثقافي والحضاري ممتد في باطن الأرض ، وكما

قال المستشرق الفرنسي "اندره كلو" الأرض تدور بحسب توقيت بغداد، هؤلاء المستشرقون والكتاب التقيتهم وتكلموا لي كثيراً عن بغداد فضلاً عن كتاباتهم التي نقلت قسما قليلا منها لضيق الوقت وإلاَّ فإنَّ مجلدات ضخمة لا تتسع لكل ما قاله المستشرقون عن أرث بغداد الحضاري والثقافي ودور الترجمة في نقل هذ الأرث والتلاقح مع الحضارات والله ولي التوفيق...

الكلمات المفتاحية: المؤرخ ، المستشرق ، العراق ، بغداد .

المقدمة

لقد كتب المؤرخون العرب الكثير عن بغداد والقسم الكبير من هؤلاء انطلقوا في كتاباتهم من منطلق قومي أو وطني ربما تعرضهم إلى المصداقية ولكن أثرت ان انقل ما كتبه أو سمعته من المؤرخين الاجانب ، فقد عاصرت عدداً كبيراً من هؤلاء المستشرقين أو الكتاب الاجانب بحكم عملي كمترجم واعلامي وصحفي مختص باللغة الفرنسية وخريج جامعة السوربون في باريس باختصاص التاريخ المعاصر، وهؤلاء، أي الكتاب الاجانب يكتبون للتاريخ بعيداً عن العواطف الوطنية والقومية والدينية، وكان لي لقاءات كثيرة مع المستشرق الفرنسي "فنسنت مونتي" الذي اعتنق الاسلام واطلق على نفسه "المنصور بالله" وبالمستشرق الفرنسي المعروف "جاك بيرك" رئيس قسم العلوم الاجتماعية والاسلامية في "الكوليج دو فرانس" والذي قام بالعديد من الترجمات للقرآن الكريم والمشرف على رسالتي حول طبيعة المجتمع العراقي في مدة ما بعد الاستقلال والذي كتب الكثير عن التاريخ العربي–الاسلامي، وكذلك التقيت في الكلية نفسها بالمستشرق الفرنسي "اندره ميكل" الذي ترجم ديوان بدر شاكر السياب والبياتي ولا انسى المستشرق الفرنسي "دومنيك شوفاليه" استاذ كرسي في السوربون والمشرف على رسالتي حول موقف وسائل الاعلام الفرنسية من القضايا العربية، وكذلك التقيت بالمستشرق الفرنسي "اندرة كلو" المعروف بكتاباته عن الشخصيات الاسلامية والاسلامية كسليمان القانوني وهارون الرشيد والتقيت أيضاً بالمستشرق الفرنسي الكبير "روجيه كارودي" الذي اعتنق الاسلام باسم رجاء كارودي وكانت تربطني معه علاقة وثيقة وتكلم كثيراً عن دور بغداد في بناء الحضارة الانسانية ولم انس أيضاً المستشرق والكاتب الفرنسي "بير روسي" الذي سطر أروع عبارات الوصف والتعبير الصادق عن حبه لبغداد والعراق ومن الكتاب والصحفيين التقيت بالكاتب الفرنسي "شارل سانت برو" الذي كتب الكثير عن العراق وكان أخرها تاريخ العراق برؤ والكثير الكثير الذين التقيت بهم وجميعهم شهدوا وتكلموا عن بغداد وعصرها الذهبي ودورها في اقامة صرح حضاري وثقافي وقد اخترت ما كتبه البعض منهم وقمت بترجمتها على الصفحات الآتية لعلها تكون شهادة محايدة عن بغداد ومن الله التوفيق.

شهادة تاريخية للمؤرخ الفرنسي "اندره كلو"

وهو ينقل عن اليعقوبي والمقدسي عن بغداد على الصفحة ٢١٧ من كتابه هارون الرشيد "بغداد ليس لها مثيل لا في الشرق ولا في الغرب "اليعقوبي"

"بغداد في قلب الاسلام وهي مدينة السلام، فيها تفتقت المواهب وتفتحت العقول والأفكار وفي احضانها عرف الذوق والاناقة والأدب، نسيمها عليل وعلمها نافذ، فيها أجمل ما خلق الله، منها انطلق العلم والاخلاق وإليها يعود، إليها تنجذب كل القلوب وعليها كل الحروب"، المقدسي.

ويقول المؤرخ في الكتاب نفسه :

بلغت بغداد خلال مدة قصيرة أوج المدنية، ولكن مما يؤسف له انه لم يبق منها أي أثر، وكما هو الحال في المدن العريقة كروما واسطنبول أو دمشق أو اثينا أو القدس، فالطبيعة في بغداد قاسية في حين هناك مدن أخرى في العراق حافظت بعض الشيء على اثارها كبابل، وسلوقية ، والمدائن وكل هذه المدن مثل بغداد تقع على الطريق الذي يربط الهضبة الايرانية بوادي الرافدين وسوريا.

هذه المنطقة أي بغداد شهدت عبر الاف السنين حضارات متعددة ، فقد تدفق عليها العلماء والأدباء والمترجمون والشعراء والتجار وهم يتنقلون بين اسيا الوسطى والهند والشرق الاقصى سالكين جبال "زاكاروس" بين خانقين وهمدان لتؤدي بهم إلى هضبة وادي الرافدين قليلا باتجاه الشمال.

ويستطرد المؤلف وعلى الرغم من ان جزيرة بغداد تقع بين دجلة والفرات فإنها نادراً ما كانت تتعرض للفيضان بفضل شبكة القنوات التي تربط بن دجلة والفرات التي تحافظ على منسوب المياه.. كل هذه العوامل جعلت من بغداد مركزا للإشعاع الفكري والثقافي كونها مركزا للاتصالات والمواصلات وسط واحة من السهل الدفاع عنها، فأصبحت مركز استقطاب لأكبر تجمع سكاني.

كان المشروع المبدئي تأسيس مدينة محصنة مدورة لتوطيد السلطة فيها كعاصمة سياسية وأدارية من دون حدائق ولا ملاعب رياضية، وعلى الرغم من ذلك أخذت بغداد هذه المدينة المدورة، تتطور بسرعة لتصبح بعد أقل من اثنتي عشر سنة عاصمة كبيرة تجلب أنتباه سكان الامبراطورية قاطبة ولتصبح عاصمة الرشيد (العصر الذهبي) خلال مدة أقل من نصف قرن، إذْ بلغ سكانها آنذاك مليون شخصاً وهذا يعني انها كانت أكبر من العالم ولم تكن تضاهيها مدينة في الغرب سوى بعض المدن في شمال ايطاليا أو باريس وفي الشرق القسطنطينية ودمشق والقاهرة التي كانت تُعدَّ كل واحدة منها بحدود النصف مليون نسمة تقريبا، ويستطرد المؤرخ، وكان من أسباب هذا التوسع الذي حصل في العالم ، والذي

يكمن في السلام والاستقرار السياسي والأدارة الجيدة وخلق الموارد الاقتصادية الجديدة واستثمارها بشكل واسع من قبل الشعوب الحية ولهذا السبب شهدت الحضارة العباسية وعاصمتها بغداد في القرنين الثامن والتاسع الميلادي أكبر نهضة شهدتها الإنسانية، ثم يقول المؤرخ الفرنسي.

لقد جمعت بغداد كل مقومات وعوامل التطور بفضل عبقرية علمائها الذين اكتشفوا هذه المقومات واستثمروها، فالاقتصاد الزراعي كان في أوج أزدهاره بفضل المشاريع التي شرعت في شق قنوات الري والبزل والتي ساعدت على زراعة الحبوب والقطن وقصب السكر وغرس اشجار النخيل والليمون، فقد جعل الفلاحون والبستانيون من بغداد واحة جميلة تشقها القنوات بين دجلة والفرات ، وكانت تعرف انها تنتظر مستقبلا زاهراً في تلك المدة انتعشت حركة الترجمة ودراسة المؤلفات القديمة فادت إلى انفتاح العالم على كل عالم حوض البحر الأبيض المتوسط الاغريقي، واتجه العباسيون نحو الافاق الفكرية والروحية للبلاد المفتوحة التي كانت مهملة من قبل الامويين، وكذلك لعبت المدرسة النسطورية والجديسابورية دوراً مهماً في خلق هذه الثقافة الجديدة وميلادها، يقول "كلو" على الصفحة ٣٠٢ من كتابه هارون الرشيد يشجع رجال العلم والمترجمين وكان قد أرسل بعثة إلى بيزنطة لدراسة المخطوطات اليونانية، وترجم قسم منها إلى العربية والسريانية، كان جعفر البرمكي ذو الثقافة العالية يدفع الرشيد في هذا المجال، أما والد يحيى فكان يستعمل الاطباء والفلاسفة من الهند، وكان حريصا جداً على راحتهم وسلامتهم من أجل نقل المعرفة إلى الإمبراطورية، والمأمون بدوره أرسل بعثة إلى القسطنطينية وكلفها بالبحث ودراسة مؤلفات ارسطو، في الوقت الذي كان يكرم فيه الشعراء ورجال الفكر والمترجمين والنقاد، ثم يقول المؤرخ: كان العرب يَعدون علم التنجيم كأحد انبل العلوم لأنَّه ذو صلة بمتطلبات العبادة، إذْ يمكن تحديد أتجاه القبلة وتحديد ساعات الصلاة وشهر رمضان، ولذلك اولى التراجم إلى العربية كانت في مجال الفلك والرياضيات. يواصل المؤرخ الفرنسي حديثه إذْ يقول، ولما كان الفرس والهنود متقدمين في علوم الفلك فقد نقل المترجمون عنهم الكثير في هذا المجال وكان الرصد يعمل منذُ مدة طويلة ولاسيَّما في مدينة "مرو" وبعد فتح الاقاليم استمرت الابحاث موقعيا ومن ثم في بغداد ومع بداية حكم الرشيد وربما قبل عهده بدؤوا بترجمة مؤلف "سيدي هارتا Siddharta" وهو من المؤلفات الهندية حول الفلك في القرن الخامس الميلادي، هذه الترجمة تبعتها تراجم عناصر اقليدس والماجيست "Almageste" وفي المدة نفسها وضعت جداول عن حركة الكواكب استندا إلى الدراسات الهندية والفارسية وبعضها من قبل أمين مكتبة هارون الرشيد الفضل بن نوبخت، كان المأمون المولع جداً بعلم الفلك والتنجيم، أمر هو أيضاً علماءه بإعداد جداول فلكية جديدة وقياس درجة مدار الوسط من أجل حساب أدق

لمحيط الأرض ولكن أكثر ما جلب اهتمام الفلكين العرب هم اليونانيون وتحديداً في الرياضيات وعلى الصفحة ٣٠٤ يقول، وفي مجال الطب، ترجمة "الباندكتا" Pandecta الطبية وهي موسوعة يونانية لارون الاسكندري وكان الطبيب الخاص لهارون الرشيد وكان يعتمد أيضاً على الكناش وهو مؤلف مدون بالسريانية ويستمد علومه من "كالين" وسقراط وبولديجن وقد بقي معتمدا عليه لمدة طويلة، وكما دون علي بن سهل الطبري ابن مترجم مؤلف الماجيست مؤلفا طبيا اطلق عليه "جنة الحكمة" أمَّا في مجال الزراعة فنذكر "فندوبنوس" الذي ترجم في العلوم الزراعية بأمر من الرشيد، ومن بين المترجمين المختصين بالعلوم نذكر حنين بن اسحق، الذي كان معاصرا لهارون الرشيد وابنه يعقوب وصهره هبيس، ثم اعقبهم بعد ذلك مسيحيون نسطوريون اعتنقوا الإسلام، لذلك نشطت الترجمة أكثر فاكثر من اليونانية والسريانية إلى العربية إذْ أصبحت اللغة العربية لغة كل المفكرين في الشرق الاوسط ومع تطور حركة الترجمة فإنَّ المترجمين لم يعودوا مهتمين بترجمة مؤلفات القدماء وحسب ، بل اخذوا يعملون على تحقيقها ودراستها وفي بعض الاحيان يتخذون منها مواقف مخالفة ، بل حتى خالفوا ارسطو نفسه هكذا تحول المترجمون إلى علماء وليس مجرد ناقلين، وقد شهد ذلك العصر ولادة روح علمية حقيقية مثل الخوارزمي ٨٣٠/م وقد كان أكبر علماء عصره في الرياضيات وهو الذي ادخل النظام العشري والف كتاب "الجبر" الذي يدرس في الغرب و"البروني علي بورن" هو احد العلماء الموسوعيين دون بحوثا في الفلك، وكان جغرافيا مشهورا، ثم ابن سينا ١٠٣٧م وهو فيلسوف وطبيب وكيمائي وفيزيائي ومؤلف ذو نتاج خصب وقد كتب في كل الموضوعات بضمنها الموسيقى، ويستطرد المؤرخ "اندره كلو" في كتابه عن بغداد في عصر هارون الرشيد فيقول وهناك عالم أخر هو ابن الهيثم ١٠٣٩م وهو عالم كبير ورياضي وفيزيائي وهو مؤلف كتاب فريد في علم البصريات في العالم العربي، والرازي، الطبيب المعروف بأعماله وجهوده عن مرض الجدري وقد وضع دائرة معارف واسعة عن الطب اعتمدت على العديد من التجارب السريرية، وكما الف سلسلة من المؤلفات الفلسفية واللاهوتية والعلوم الطبيعية ونشير بذلك الى المؤلف الشهير "سر الاسرار" الذي دخل لأول مرة في مجال الكيمياء، والجغرافيون العرب احتلوا ايضا مكانه مرموقة، فالقوة الاقتصادية للعباسيين دفعت البحارة والتجار إلى اقاصي الأرض ومنذُ بداية القرن التاسع توجهت الأنظار نحو العلوم الجغرافية العربية التي أثارت وقتها أنتباه العالم. فاليعقوبي (نهاية القرن التاسع) الذي يصف في كتابه (البلدان) الطرق المؤدية إلى حدود الامبراطورية في ضوء مشاهدات الرحالة الذين بثق بهم، وكذلك المسعودي ٩٥٦م وهو رحالة كبير جاب بحر الخزر والأبيض المتوسط، وقد عَدَّ المسعودي ان الجغرافيه هي جزء من التاريخ، مجسداً أهمية المكان عند الانسان والحيوان والنبات، ومؤلفه "مروج الذهب"

والذي يَعدَّه ثروة كبيرة من المعلومات كموسعة الطبري ٩٢٣م الذي اختط التاريخ منذُ بداية الخليقة وجاء على الصفحة ٣٠٧.

"كل هؤلاء العلماء قد وضعوا العراق وبغداد في مركز الأرض منها يبدؤون في الوصف، وفي بداية القرن الحادي عشر بلغت الجغرافيا العربية ذروتها مع العالم البيروني وكان قد قام برحلة إلى الهند وحمل معه تحفة كتاب "الهند" وهو ثروة ضخمة من المعلومات عن هذا البلد، ثم مضى هذا العالم إلى تحقيق الاعمال السابقة، تاركا ملاحظات قيمة عن الفلك والجغرافيا الفزيائية، ثم اكتشف طريقة لتخليص مياه البحر من الاملاح وحدد الوزن النوعي للمواد، كل هذه النشاطات وعلى رأسها التراجم والنماذج الأدبية والتحقيقات والهوامش والمؤلفات الاصلية كانت الأسس في تكوين المكتبات الضخمة، ومكتبة الرشيد وحدها كان يديرها جهاز كامل من الموظفين والعمال، كل هذا الازدهار العلمي وظهور علماء الفلسفة في عصر هارون الرشيد والقرنين اللذين تليا عصره، اطلق على تلك المدة بالعصر الذهبي.

وجاء على الصفحة ٣٠٨.

وفي نحو عام ٨٣٠م منح المأمون هذه الحركة العلمية دعما كبيرا وذلك بتأسيس بيت الحكمة في بغداد، وكانت أكاديمية مخصصة للتراجم والبحوث النوعية في بغداد، وكانت عبارة عن أكاديمية مخصصة للتراجم والبحوث النوعية واصبحت شبيه بمكتبة الاسكندرية وكان الطلاب الذين يقبلون فيها يتسلمون راتبا من هذه المؤسسة، ويستطرد المؤرخ، كانت بغداد فعلا مركز اشعاع فكري، يتوجه إليها علماء الفلك والرياضيات والاطباء والجغرافيون والفلاسفة والمترجمون والمؤلفون يأتون من كل بقاع الأرض ليتلقوا المزيد من العلم وكل هؤلاء كانوا يشاركون في الازدهار العلمي والفكري، لقد اعادوا للشرق القديم حضارة وثقافة جديدة نتج عنها هذا التطعيم والتزاوج للثقافات الكبيرة لحوض المتوسط في الشرق والقرون الوسطى في الغرب.

ثم يقول المؤرخ على الصفحة ٣٠٩:

اختطت الثقافة العربية في بغداد اساليب عديدة لنقل اشعاعها الفكري للغرب فقد انصب جهدها في التنقيب عن المؤلفات الطبية ودراستها وقد بدأ العلماء العرب ينطلقون من بغداد ويجوبون بقاع الأرض بحثا عن هذه المؤلفات وقسم منهم انطلق من افريقيا وقبرص حتى ساليرن Salerne إذْ توجد فيها مدرسة قديمة ومشهورة في الطب ...وكان قسم من هذه المؤلفات أو الكتب ينقلها طبيب بعد ان يترجم في قرطاجة، هذا الطبيب اعتنق الاسلام وكان اسمه قسطنطين، كتب الطب بالعربية ومنحت علماء مدرسة ساليرن دفعا علميا كانت بأمس الحاجة إليه آنذاك ومنها انتقلت إلى مدارس اوربية أخرى، أمَّا قبرص وجنوب ايطاليا فإنَّها كانت تمارس تأثيراً كبيراً على الأوساط الفكرية المسيحية وقد تفتحت ثقافة يونانية –

لاتينية– عربية بفضل التسامح وتذوق الأفكار والنتاجات ولاسيَّما من لدن الأمراء المسلمين والملوك النورمانديين.

المؤرخ الفرنسي "روبرت مانتران"Robert Mantran

يقول في كتابه المد الاسلامي من القرن السابع وحتى القرن الحادي عشر وعلى الصفحة ١٦٩ ما يأتي:

ومنذُ بواكير العصر العباسي ، ظهرت في البصرة ولاسيَّما في بغداد الأندية الثقافية والعلمية وبدافع وتشجيع الخلفاء الأوائل، فالمأمون أسس فيها، أي في بغداد "بيت الحكمة "وهو مكتبة ومكان للقاء الأدباء والمترجمين، وهكذا أصبحت بغداد عاصمة حقيقية للمثقفين في الامبراطورية فانتشرت فيها المدارس الفقهية والدينية، واذا كانت بغداد قد لعبت مثل هذا الدور المتألق ذلك لأنها احتضنت اصحاب الثروات الفكرية والثقافية والادبية كالكتاب والشعراء والعلماء، ويستطرد المؤرخ "مانتران" وفي بغداد كان اصحاب العلم والثقافة ينالون ارفع وأكبر المكافآت، فقد كانت محطة لقاءات كل القادمين من الأقاليم، هذه الميزة هي التي اتاحت لهذه العاصمة التقدم، فقد كان الايرانيون والهنود الذين يحملون افكارا جديدة ورؤى ثقافية وادبية ينضمون إلى العرب، كانت الدواوين والمنتديات تضم المسيحين والمسلمين من الاطباء ومترجمي المؤلفات اليونانية في جو من المودة والتسامح الأمر الذي أسهم في المزيد من تطور علوم الفلك والرياضيات، وبفضل هذه الاعمال والدراسات وبحوث لمفكرين والعلماء العرب، فإنَّ القيم الانسانية حققت تقدما كبيراً لم يكن الغرب المسيحي قد عرفها بعد إلاَّ عن طريق ايطاليا ولاسيَّما اسبانيا وبفضل الفيزيائيين والكيميائيين العرب اكتشف العديد من العناصر وشرحت طريقة الافادة منها.

ويستطرد المؤرخ الفرنسي في كتابه "المد الاسلامي" على الصفحة ١٧٢ قائلا:

لم يكن الشعر الحر معروفا في الاندية والمجالس الثقافية وفي البلاط وانَّما كان الشعر الموزون المقفى هو السائد ولكن حدث الانقلاب في الشعر القديم مع شعراء البلاط كأبي نؤاس مثلا ٨١٠م وابو العتاهية استطاع هؤلاء الشعراء التعبير في شعرهم نثرا وكانت مدن البصرة والكوفة من المراكز المهمة لدراسة قوانين النحو والصرف معتمدة على القران ، وكما ان هناك مؤلفات أخرى في ميدان التاريخ والجغرافيا تروي الأحداث التي كان يعيشها المجتمع آنذاك ككتاب " مروج الذهب " للمسعودي "٩٥٦م.

اذن لم يكن الجو الثقافي والأدبي غائبا عن الحياة في تلك المدة ويعد الجاحظ ٨٦٩م من احد كبار الكتاب في القرون الوسطى وكان لوجود بلاط الخليفة اثر مهم في تزايد عدد الشعراء والأدباء وهو ما يطلق عليهم بالندماء ص/ ١٧٣ وهو الذي شجع ازدهار الحركة الأدبية والتعبير عن طريق الشعر ، وكما كان يفعل أبو نؤاس وكتاب الاغاني لأبي الفرج

الاصفهاني ٩٦٧م كان لوحة تعبيرية للمجتمع والحياة للقرنين الاوليين من العصر العباسي وعرض جيد عن العالم العربي–الاسلامي في تلك المدة ، والموسيقى لم تغب عن بال المؤرخين ليكتبوا عنها ، فقد استطرد المؤلف يقول: حياة البلاط اولت الموسيقى مكانه مهمة فقد كان في قصر الخليفة جمهور من الموسيقيين كان اشهرهم زرياب وابراهيم الموصلي ٨٠٤م وهؤلاء كانوا قد تأثروا بالموسيقى اليونانية ولكن لحنت بالموسيقى وعولجت علميا "نوطاتها" حتى ان الكندي كتب "نوطات" لكل أغنية وفي كتاب الأغاني توجد فيه "نوطة" موسيقية لكل اغنية.

المؤرخة الفرنسية "ليزل كراز Liesl Graz"

فقد كتبت على الصفحة ٤٥ و٤٦ في كتابها "العراق حاضرا" الصادر عن دار نشر " القارات الثلاث" تقول فيه:

ومنذُ ان أسست العاصمة الجديدة بغداد "دار السلام" أصبحت مركز استقطاب عالمي إذْ امتزجت الثقافة العربية بالإيرانية والتركية ولم يبق من البيزنطية إلا القليل ومع ذلك فإنَّ هذه الثغرة عوضت عن طريق تشجيع المترجمين في ترجمة المؤلفات الأدبية والفلسفية واليونانية وكذلك التجارب الطبية والفلكية والجغرافية والرياضية، وهذا يعني ان الغرب مدين دينا كبيراً لتلك الحضارة التي ولدت مع تأسيس بغداد على يد الخلفاء العباسيين، ولو لم تكن هذه التراجم وهؤلاء المترجمين فإنَّ جزءا كبيراً من تراثنا الثقافي كان قد اضمحل وتلاشى.

لقد كانت أوربا في أواخر القرون الوسطى قليلة الاهتمام بهذه التراجم ولكن عندما أدركت أهميتها فيما بعد استيقظت من سباتها وبفضل العلماء العرب في نيقوسيا واسبانيا استطاعت ان تنقل هذه الكنوز.

المفكر الفرنسي والكاتب والصحفي والمؤرخ "شارل سانت برو " – Charles Saint Prot

يقول على الصفحة ٦٣ في "كتابه تاريخ العراق" عن بغداد وازدهارها: أسست بغداد عام ٧٥٨م من قبل الخليفة المنصور وانتهى بنيانها عام ٧٦٢ وقد شيدت على شكل دائرة قطرها كيلومتران استنادا إلى خريطة رسمها المنصور نفسه وأطلق عليها "دار السلام" ولم يمض على بنيانها قرن واحد إلا وأصبحت حاضرة الشرق والغرب ولاسيَّما في عصر الرشيد. لقد عرفت بغداد واشتهرت برقيها على الصعيد الفني والإداري والاقتصادي ، فقد عرفت الامبراطورية ازدهاراً كبيراً بفضل انتشار الزراعة وكثرة الزراع الذين افادوا من خدمات الري والعدد الزراعية المحلية الى جانب صناعة النسيج والعطور ومواد التجميل والحرف الأخرى.

لقد تفوق اقتصاد الامبراطورية على الشرق والغرب حتى ان المستشرق "اندره ميكل" Andre Miquel قال عبارته المشهورة "ان الأرض تدور حسب توقيت بغداد ص/ ٦٤،

كما توسعت التجارة والشحن من ميناء البصرة وكانت العملة العباسية الدينار قوية كقوة الدولار في يومنا هذا.

في ذلك العصر أزدهرت أيضاً العلوم والآداب في مجال الفلك والرياضيات والطب والجراحة ، وقد أسست الكثير من مراكز البحوث للعلماء في بغداد كما طورت طريقة استعمال شبكة الري لتشمل زراعة القطن والرز والبنجر لتستعمل في صناعة النسيج والسكر، أمَّا على الصعيد الثقافي ، فقد كانت لغة القرآن هي اللغة الرسمية في الامبراطورية وقد عرف الأدب ازدهاراً كبيراً ولاسيَّما الموسيقى التي كانت ترافق الشعر التي لا تخلوا مجالس العراقيين منها، وكما كانت في بغداد مدارس للغناء والموسيقى وكان الشباب يتجمعون في المقاهي ويعزفون على ألة العود ويعلمون العزف عليها وغالبا ما كان هذا العزف يصاحب رقص الجواري في قصور الخلفاء، ولا ننسى الشعراء والندماء الذين تفننوا بنظم القريض وكان من اشهرهم الشاعر أبو نؤاس ولم يمض قرن واحد على تأسيس بغداد حتى وبلغ سكانها المليون نسمة.

المستشرق والمؤرخ الفرنسي "بيير روسي| PIERRE ROSSI

مراقب ومحلل للأوضاع والاحداث التاريخية في الوطن العربي

ماذا يقول عن العراق وبغداد؟

ولد في جزيرة كورسيكا الفرنسية من عائلة قريبة من الاسلام وقد امضى معظم حياته في الدول الاسلامية والعربية، بيير روسي هو الذي أسس المركز الثقافي في بغداد وبصفته مستشارا للشؤون الثقافية في الخارجية الفرنسية تجول في معظم الاقطار العربية من الجزائر حتى مسقط والتقى العديد من رؤساء الدول العربية، أحب العراق حبا عميقا والف عنه العديد من الكتب والمؤلفات من بينها عراق الثوار وقد التقيته في باريس في ثمانينات القرن الماضي وشعرت بحبه للعراق، وكان أخر كتاب مصور له عن العراق هو "عراق بلد النهر الثالث" الذي يجسد فيه حبه للعراق بهذه المقدمة الرائعة في كتابه اعلاه وهذه ترجمتها:

"من الجبال الشامخة في الشمال الى بساتين النخيل النضرة في الجنوب، مدت الحضارة العراقية جناحييها وهي تضم في جنباتها ملك النمرود عارضا ثمرة الحب الابدي الخالد والذي نراه هنا على هذه الجدارية، ونخيل البصرة تتذكر بانها كانت في يوم ما تعبد كأشجار الحياة الباسقة التي تمتزج عروقها بالخطوط المسمارية لأول كتابة عرفها العالم، ايها النهر المقدس، سواء كنت تقبل مرقد النبي يونس في الموصل او كنت تداعب جنبات "سر من رأى" سامراء بقبابها ومآذنها التي تتعالى رويدا رويدا لتعانق السماوات، انه دوما انت الذي تعطي المعنى لتحديات هذا العصر، انه انت الذي تسبر اغوار تلك النظرات الفرحة لنساء العراق اللواتي يستقبلن الايام الجديدة المنطلقة من نفس الينابيع التي تدفقت منه الايام الخوالي، فلتتصاعد

زغاريد الفرح المنبثقة من باطن ارض العراق، ولتعانق براعم العراق من شماله الى جنوبه هذا الزمن الجديد الذي سيوجه الاجيال القادمة من الفجر كما توجه الشمس الظلال".

ويقول روسي في الكتاب نفسه وعلى الصفحة (٥٤) عن بغداد:

بغداد عاصمة الخلافة العباسية التي أسسها أبو جعفر المنصور عام ٧٦٢م بلغت اوجها في عصر هارون الرشيد إذْ اقام العلاقات الدبلوماسية مع الملك شارلمان واطلق على عصره بالعصر الذهبي، وواصل ولده المأمون الشغوف بالعلم والأدب رسالة والده الرشيد وجعل من بغداد عاصمتا للعلم والأدب، عاصمتا للفكر والتأليف والكتابة ولم يكن في حينها لا في أوربا ولا في افريقيا ولا في اسيا اي عالم يستحق هذه الصفة لا بل لم يكن يوجد اي صراف أو تاجر أو بحار أو محارب ينكر دور بغداد في ازدهار الحضارة التي استمرت حتى الثالث عشر من شباط عام ١٢٥٨ عندما احتل هولاكو حفيد جنكيز خان بغداد فاشعل فيها النار وحرق النسل والحرث ليواصل "تيمور لنك" تخريبها بالكامل، لتعود بعد قرن من الزمان أي في عام ١٥٣٤ ولايتا تابعة للإمبراطورية العثمانية".

ولكن هل انقطعت بغداد عن مواصلة العلم والأدب والتفاعل مع العالم على الرغم من الماسي التي عانت منه وهي تحت الاحتلال العثماني؟ لقد اشعلت الثورة الفرنسية ومبادئها المتمثلة بالحرية والديمقراطية والمساواة النار في ضمير المثقفين والمفكرين المظلومين والمحرومين في العالم ولم يكن المثقفون العراقيون في منأى عن هذا التغيير ولاسيَّما بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ والاصلاحات التي قام بها مدحت باشا وناظم باشا. هذه المحفزات سواء كانت داخلية أو خارجية عملت ودفعت الاحوال الاقتصادية–الاجتماعية في العراق إلى طور جديد وأدت إلى خلق حالة ثقافية واسعة ويقول المؤرخ العراقي عباس العزاوي "ونرى حوادث العراق متأثرة بما كان يجري في العالم من أراء وتغييرات وتطورات وعلى أثره صدرت العديد من الصحف والمجلات وعادت بغداد لتلعب دورها في التلاقح الفكري والثقافي عبر الترجمة ولكن هذه المرة بالأتجاه المعاكس فكانت احدى المؤثرات التي عرفت الأدباء العراقيين بألوان متعددة ومتنوعة من النتاج الفكري والأدبي الغربي ولاسيَّما الفرنسي. وأزدادت حركة الترجمة نشاطا عند نهاية العشرينيات من القرن الماضي.

وعلى العموم استعادت دورها المتألق وعادت الكتب المترجمة للصدور من بيت الحكمة ودار المأمون ومن دور الطبع والنشر في بغداد والمحافظات وهو ما نشهده وما نعيشه في وقتنا الحاضر وتبقى بغداد عاصمة للثقافة العربية.

مصادر البحث:

- هارون الرشيد ولعبة الأمم، اندرة كلو، دار Fayard، ١٩٨٩. وكان المؤلف قد أهدي كتابه لي مطرز بهذه العبارة (الى السيد صادق عزيز: كتب هذا الكتاب إلى مجد الحضارة العربية وانجازاتها والى عظمائها... توقيع/ اندرة كلو).
- العرب من الامس إلى الغد، جاك بيرك، باريس، ١٩٦٩. صادر من دار نشر Seuil
- عراق اليوم، بيرنارد فيرنيه، اصدار مكتبة "ارماند كولن"، ١٩٦٢.
- عراق بلد النهر الجديد، بيير روسي، ١٩٨٠، اصدار دار J.A.
- تاريخ العراق منذ ٨٠٠ عام، شاؤل سانت برو، باريس، ١٩٩٩، دار نشر Ellipeses، باريس.
- العصر الذهبي للعباسيين، اصدار دار السندباد، باريس، ١٩٨٣.
- من الفرات إلى أطلس بجزئيه، جاك بيرك، دار السندباد، باريس، ١٩٧٨.
- الاسلام امام التحدي، جاك بيرك، باريس، ١٩٨٠، دار نشر Gallimard.
- شارلمان وهارون الرشيد، دراسة في الصلات الدبلوماسية والعلاقات الاقتصادية في العصور الوسطى ٧٦٨-٨١٤، مرتضى عبد الزهرة عبد الحسين.
- العراق في الحاضر، ليزل كراز، دار نشر القارات الثلاثة، باريس.

References:

- Harun al-Rashid and the Nations Game, Andra Clough, Dar Fayard, 1989. The author had dedicated his book to me embroidered with this phrase (To Mr. Sadiq Aziz: This book was written to the glory and achievements of Arab civilization and to its greats...Signed/Andra Clough).
- The Arabs from Yesterday to Tomorrow, Jacques Burke, Paris, 1969. Issued by Seuil. Publishing
- Iraq Today, Bernard Vernet, published by the Armand Colin Library, 1962.
- Iraq, the New River Country, Pierre Rossi, 1980, published by J.A.
- The History of Iraq for 800 Years, Saul Saint-Prow, Paris, 1999, Ellipeses Publishing House, Paris.
- The Golden Age of the Abbasids, published by Dar Al-Sinbad, Paris, 1983.

- From the Euphrates to the Atlas in Parts, Jacques Burke, Sinbad House, Paris, 1978.
- Islam in front of the challenge, Jacques Burke, Paris, 1980, Gallimard Publishing House.
- Charlemagne and Harun al-Rashid, A Study of Diplomatic and Economic Relations in the Middle Ages, 768-814, by Mortada Abdel-Zahra Abdel-Hussein.
- Iraq in the Present, Liesel Kraze, Three Continents Publishing House, Paris.